وَكَذَلِكَ مَسْأَلَةُ الصِّفَةِ: هَلْ هِيَ زَائِدَةٌ عَلَى الذَّاتِ أَمْ لَا؟ لَفْظُهَا مُجْمَلٌ(١)، وَكَذَلِكَ لَفْظُ الْغَيْرِ، فِيهِ إِجْمَالٌ، فَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا لَيْسَ هُوَ إِيَّاهُ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا جَازَ مُفَارَقَتُهُ لَهُ(٢).

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (٢/ ٣٢٧)، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٣/ ٢٩٨) – (٥/ ١٧)، الرسالة الأكملية في ما يجب لله من صفات الكمال (ص: ٢٣)، درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٢٣١) – (٣/ ٢٠) – (٨/ ٥٣)، مجموع الفتاوى (١٧/ ١٦١)، منهاج السنة النبوية (٢/ ٤٩٠).

(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (٢/ ٣٢٦)، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٣/ ٢٨٩)، الرد على المنطقيين (ص: ٢٢٦)، الرسالة الأكملية في ما يجب لله من صفات الكمال (ص: ٢٣)، الصفدية (١/ ١٠٧)، الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٦/ ٤٥١)، بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية (ص: ٤٢٦)،بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٣/ ٦٣١)، درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٨٢)– (٢/ ١٨٧)– (٢/ ٢٧١)– (٣/ ٢٤)– (٤/ ٢٠٣)– (٥/ ٤٩)– (٩/ ١٣٦)– (١٠/ ٧٠)–(١٠/ ٢٣٢)، مجموع الفتاوى (٣/ ٣٣٦)– (١٢/ ١٧٠)–(١٢/ ٥٦٠)– (١٧/ ١٥٩)، منهاج السنة النبوية (٢/ ١٦٦)، الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية

وَلِهَذَا كَانَ أَئِمَّةُ السُّنَّةِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لَا يُطْلِقُونَ عَلَى صِفَاتِ اللَّهِ وَكَلَامِهِ أَنَّهُ غَيْرُهُ، وَلَا أَنَّهُ لَيْسَ غَيْرَهُ.

فهذه العبارات من علم المنطق والكلام، هل الصفة زائدة على الذات؟[٣]، وحيث يقسمون الشيء إلى جوهر وعرض[٤]، فجوهر الشيء حقيقة ذاته والصفة زائدة على الذات وهي العرض، لكن العرض الذي هو الصفة ممكن أن يتخيل انفكاكه عن الذات في الذهن فقط، أما في الخارج فلا يمكن تصور ذات منفكة عن الصفة، فمثلا يمكن تصور فرس خال من الحياة؛ ولكن لا يمكن تصور فرس ليس بجسم ولا عرض، وله ذات لا تشم ولا تحس، ولا ذات رطوبة ولا يبوسة، ولا لين ولا قاس، ولا عمق أو عرض أو طول ونحو ذلك، فهذا لا يمكن وجوده.

فيقال لهم: ماذا تقصدون بالصفات؟ مفهوم الصفة عندكم يدخل فيه كون الشيء رطبا أو يابسا أو متحركا أو ساكنا، أو ذو أبعاض أو ذو أعراض

والمعطلة (٣/ ٩٨٢)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٣٣٦).

(٣) انظر: غاية المرام في علم الكلام (ص: ٣٨).

(٤) انظر: الرد على المنطقيين (ص: ١٢٤).

ذو عمق ذو بعد. فكيف يتصور ذات خالية من هذا كله إلا في الذهن، لكن في الخارج لا يمكن أن تكون ذات إلا ولها صفات.

والملائكة والجن والروح ونحو ذلك كل هذه المخلوقات لها صفات معلومة من الكتاب والسنة، وكوننا لا نراها لا يعني ذلك أنها مسلوبة الصفات.

لِأَنَّ إِطْلَاقَ الْإِثْبَاتِ قَدْ يُشْعِرُ أَنَّ ذَلِكَ مُبَايِنٌ لَهُ، وَإِطْلَاقَ النَّفْيِ قَدْ يُشْعِرُ بِأَنَّهُ هُوَ هُوَ، إِذَا كَانَ لَفْظُ الْغَيْرِ فِيهِ إِجْمَالٌ، فَلَا يُطْلَقُ إِلَّا مَعَ الْبَيَانِ وَالتَّفْصِيلِ: فَإِنْ أُرِيدَ بِهِ أَنَّ هُنَاكَ ذَاتًا مُجَرَّدَةً قَائِمَةً بِنَفْسِهَا مُنْفَصِلَةً عَنِ الصِّفَاتِ الزَّائِدَةِ عَلَيْهَا - فَهَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ، وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ أَنَّ الصِّفَاتِ زَائِدَةٌ عَلَى الذَّاتِ الَّتِي يُفْهَمُ مِنْ مَعْنَاهَا غَيْرُ مَا يُفْهَمُ مِنْ مَعْنَى الصِّفَةِ - فَهَذَا حَقٌّ.

أي يمكن أن نتصور زيدا أنه ليس بعالم، فهذا معقول: ذات موجودة منتف عنها صفة العلم، وممكن أيضا تصوره أنه ليس بحي. فيمكن أن توجد ذات منتف عنها بعض الصفات، ولكن بالنسبة لذات الله وصفاته الثابتة له فلا يمكن تجرده سبحانه عنها.

وَلَكِنْ لَيْسَ فِي الْخَارِجِ ذَاتٌ مُجَرَّدَةٌ عَنِ الصِّفَاتِ، بَلِ الذَّاتُ الْمَوْصُوفَةُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ الثَّابِتَةِ لَهَا لَا تَنْفَصِلُ عَنْهَا، وَإِنَّمَا يَفْرِضُ الذِّهْنُ ذَاتًا وَصِفَةً، كُلًّا وَحْدَهُ، وَلَكِنْ لَيْسَ فِي الْخَارِجِ ذَاتٌ غَيْرُ مَوْصُوفَةٍ، فَإِنَّ هَذَا مُحَالٌ. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا صِفَةَ الْوُجُودِ، فَإِنَّهَا لَا تَنْفَكُّ عَنِ الْمَوْجُودِ، وَإِنْ كَانَ الذِّهْنُ يَفْرِضُ ذَاتًا وَوُجُودًا، يَتَصَوَّرُ هَذَا وَحْدَهُ، وَهَذَا وَحْدَهُ، لَكِنْ لَا يَنْفَكُّ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ فِي الْخَارِجِ.

فإن قيل هل يمكن وجود ذات مجردة عن الصفات؟ فنقول ما المقصود هل تريد ذاتا مجردة عن كل الصفات أم عن بعض الصفات؟ أم عن بعض الصفات فنعم، وأما عن كل الصفات فمستحيل. وذلك انه حتى تكون ذاتا لا بد لها من صفة فإذا عدمت كل الصفات فلا ذات(٥).

وَقَدْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ: الصِّفَةُ لَا عَيْنُ الْمَوْصُوفِ وَلَا غَيْرُهُ. هَذَا لَهُ مَعْنًى صَحِيحٌ، وَهُوَ: أَنَّ الصِّفَةَ لَيْسَتْ عَيْنَ ذَاتِ الْمَوْصُوفِ الَّتِي يَفْرِضُهَا

---

(٥) انظر في بيان بطلان وجود ذات بلا صفات: الصفدية (١/ ١٠٩)، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٥/ ١٦)، درء تعارض العقل والنقل (١٠/ ١٥٧)، منهاج السنة النبوية (٢/ ٢١٤).

الذِّهْنُ مُجَرَّدَةً بَلْ هِيَ غَيْرُهَا، وَلَيْسَتْ غَيْرَ الْمَوْصُوفِ، بَلِ الْمَوْصُوفُ بِصِفَاتِهِ شَيْءٌ وَاحِدٌ غَيْرُ مُتَعَدِّدٍ.

نحن نقول: الله بصفاته، ولا نقول الله وصفاته، أو الله مع صفاته(٦).

وَالتَّحْقِيقُ أَنْ "يُفَرَّقَ بَيْنَ قَوْلِ الْقَائِلِ: الصِّفَاتُ غَيْرُ الذَّاتِ، وَبَيْنَ قَوْلِهِ: صِفَاتُ اللَّهِ غَيْرُ اللَّهِ، فَإِنَّ الثَّانِيَ بَاطِلٌ؛ لِأَنَّ مُسَمَّى اللَّهِ يَدْخُلُ فِيهِ صِفَتُهُ بِخِلَافِ مُسَمَّى الذَّاتِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْخُلُ فِيهِ الصِّفَاتُ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ أَنَّ الصِّفَاتِ زَائِدَةٌ عَلَى مَا أَثْبَتَهُ الْمُثْبِتُونَ مِنَ الذَّاتِ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمَوْصُوفُ بِالذَّاتِ الْمَوْصُوفَةِ بِصِفَاتِهِ اللَّازِمَةِ"(٧)، وَلِهَذَا قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَا زَالَ بِصِفَاتِهِ) وَلَمْ يَقُلْ: لَا زَالَ وَصِفَاتُهُ؛ لِأَنَّ الْعَطْفَ يُؤْذِنُ بِالْمُغَايَرَةِ، وَكَذَلِكَ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مُنَاظَرَتِهِ الْجَهْمِيَّةَ،

---

(٦) انظر: رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب (ص: ١٢٢)، منهاج السنة النبوية (٢/ ٤٩٠).

(٧) ما بين علامتي التنصيص هو من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية كما في اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (٢/ ٣٢٧)، وانظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٥/ ١٧)، الصفدية (١/ ١٠٨)، درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٢٤)، مجموع الفتاوى (١٧/ ١٦١).

لَا نَقُولُ: اللَّهُ وَعِلْمُهُ، اللَّهُ وَقُدْرَتُهُ، اللَّهُ وَنُورُهُ، وَلَكِنْ نَقُولُ: اللَّهُ بِعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَنُورِهِ هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى(٨).

فَإِذَا قُلْتُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ فَقَدْ عُذْتُ بِالذَّاتِ الْمُقَدَّسَةِ الْمَوْصُوفَةِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ الْمُقَدَّسِ الثَّابِتَةِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ الِانْفِصَالَ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ

وَإِذَا قُلْتُ: أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ، فَقَدْ عُذْتُ بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَمْ أَعُذْ بِغَيْرِ اللَّهِ. وَهَذَا الْمَعْنَى يُفْهَمُ مِنْ لَفْظِ الذَّاتِ، فَإِنَّ ذَاتَ فِي أَصْلِ مَعْنَاهَا لَا تُسْتَعْمَلُ إِلَّا مُضَافَةً(٩)، أَيْ: ذَاتُ وُجُودٍ، ذَاتُ قُدْرَةٍ، ذَاتُ عِزٍّ، ذَاتُ عِلْمٍ، ذَاتُ كَرَمٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ. فَذَاتُ كَذَا بِمَعْنَى صَاحِبَةِ كَذَا: تَأْنِيثُ ذُو. هَذَا أَصْلُ مَعْنَى الْكَلِمَةِ.

---

(٨) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٢٣)، وهو في الرد على الجهمية والزنادقة، تصحيح إسماعيل الأنصاري، (ص ٤٩) وطبعة د. عميرة (ص ١٣٣). أفاد ذلك صبري شاهين في تحقيقه للرد على الجهمية والزنادقة (١/ ٢٠).

(٩) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٤/ ١٤٠). الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٤/ ١٣٨١).

هذه التي تكون مضافة بخلاف ذو الطائية التي تكون بمعنى الذي[١٠].

لَا يُتَصَوَّرُ انْفِصَالُ الصِّفَاتِ عَنِ الذَّاتِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ

فَعُلِمَ أَنَّ الذَّاتَ لَا يُتَصَوَّرُ انْفِصَالُ الصِّفَاتِ عَنْهَا بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَإِنْ كَانَ الذِّهْنُ قَدْ يَفْرِضُ ذَاتًا مُجَرَّدَةً عَنِ الصِّفَاتِ، كَمَا يَفْرِضُ الْمُحَالَ. وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ»[١١]. وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»[١٢]. وَلَا يَعُوذُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِغَيْرِ اللَّهِ. وَكَذَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»[١٣]. وَقَالَ صَلَّى

---

(١٠) انظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (١/ ١٥٩).

(١١) سنن أبي داود (٤/ ١١) (٣٨٩١)، سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٤٠٨) (٢٠٨٠) وقال: "هذا حديث حسن صحيح"، سنن ابن ماجه (٢/ ١١٦٣) (٣٥٢٢).

(١٢) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٨١) ٥٥ - (٢٧٠٨).

(١٣) صحيح مسلم (١/ ٣٥٢) ٢٢٢ - (٤٨٦).

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَنَعُوذُ[١٤] بِعَظَمَتِكَ أَنْ نُغْتَالَ مِنْ تَحْتِنَا»[١٥]. وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ»[١٦].

---

(١٤) كذا بصيغة الجمع في نسخة شرح الطحاوية – ط دار السلام (ص: ١٢٧)، ط الأوقاف السعودية (ص: ٨٢)، شرح الطحاوية ت الأرناؤوط (١/ ١٠١).

(١٥) سنن أبي داود (٤/ ٣١٨) (٥٠٧٤)، سنن النسائي (٨/ ٢٨٢) (٥٥٢٩)، سنن ابن ماجه (٢/ ١٢٧٣) (٣٨٧١)، كلهم بصيغة المفرد ولفظ ابن ماجه «أعوذ بك». قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه" المستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ٦٩٨)

(١٦) الدعاء للطبراني (ص: ٣١٥)(١٠٣٦)، قال ابن القيم: "إسناده قابل للتحسين" بدائع الفوائد (٢/ ٢٠٤)، وقال الهيثمي: "رواه الطبراني، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات" مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٦/ ٣٥). وضعفه اللألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (٦/ ٤٨٦) (٢٩٣٣).

هذا واضح جدا وفيه رد على المعتزلة – الذين يقولون أن صفات الله غيره[١٧] – فيقال لهم الرسول ﷺ قال «أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ » فإذا كانت غيره فكيف يستعيذ بغير الله عز وجل؟![١٨].

هَلِ الِاسْمُ عَيْنُ الْمُسَمَّى أَوْ غَيْرُهُ

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: الِاسْمُ عَيْنُ الْمُسَمَّى أَوْ غَيْرُهُ؟ "وطَالَمَا غَلِطَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي ذَلِكَ، وَجَهِلُوا الصَّوَابَ فِيهِ: فَالِاسْمُ يُرَادُ بِهِ الْمُسَمَّى تَارَةً، وَيُرَادُ بِهِ اللَّفْظُ الدَّالُّ عَلَيْهِ أُخْرَى، فَإِذَا قُلْتَ: قَالَ اللَّهُ كَذَا، أَوْ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ – فَهَذَا الْمُرَادُ بِهِ الْمُسَمَّى نَفْسُهُ، وَإِذَا قُلْتَ: اللَّهُ اسْمٌ عَرَبِيٌّ، وَالرَّحْمَنُ اسْمٌ عَرَبِيٌّ، وَالرَّحْمَنُ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَنَحْوَ ذَلِكَ – فَالِاسْمُ هَاهُنَا لِلْمُسَمَّى، وَلَا يُقَالُ غَيْرُهُ، لِمَا فِي لَفْظِ الْغَيْرِ مِنَ الْإِجْمَالِ، فَإِنْ أُرِيدَ بِالْمُغَايَرَةِ أَنَّ اللَّفْظَ غَيْرُ الْمَعْنَى فَحَقٌّ، وَإِنْ أُرِيدَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ كَانَ وَلَا اسْمَ لَهُ، حَتَّى خَلَقَ لِنَفْسِهِ أَسْمَاءً، أَوْ حَتَّى

---

(١٧)انظر: بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية (ص: ٤٢٦).

(١٨) أي "وقد أجمع العلماء على أنه لا تجوز الاستعاذة بغير الله" تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد (ص: ١٧٣).

سَمَّاهُ خَلْقُهُ بِأَسْمَاءٍ مِنْ صُنْعِهِمْ: فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الضَّلَالِ وَالْإِلْحَادِ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى"(١٩).

وَالشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَشَارَ بِقَوْلِهِ: (مَا زَالَ بِصِفَاتِهِ قَدِيمًا قَبْلَ خَلْقِهِ) إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ – إِلَى الرَّدِّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الشِّيعَةِ. فَإِنَّهُمْ قَالُوا: "إِنَّهُ تَعَالَى صَارَ قَادِرًا عَلَى الْفِعْلِ وَالْكَلَامِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا عَلَيْهِ، لِكَوْنِهِ صَارَ الْفِعْلُ وَالْكَلَامُ مُمْكِنًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مُمْتَنِعًا، وَأَنَّهُ انْقَلَبَ مِنَ الِامْتِنَاعِ الذَّاتِيِّ إِلَى الْإِمْكَانِ الذَّاتِيِّ! وَعَلَى ابْنِ كُلَّابٍ وَالْأَشْعَرِيِّ وَمَنْ وَافَقَهُمَا، فَإِنَّهُمْ قَالُوا: "إِنَّ الْفِعْلَ صَارَ مُمْكِنًا لَهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُمْتَنِعًا مِنْهُ. وَأَمَّا الْكَلَامُ عِنْدَهُمْ فَلَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْمَشِيئَةِ وَالْقُدْرَةِ، بَلْ هُوَ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَازِمٌ لِذَاتِهِ.

قولهم أنه لم يكن قادرا عليه هذا كلام خطير فهذا هو حلول الحوادث المذموم، عجبا لهم كيف يقولون أن الله منزه عن حلول الحوادث، ثم يثبتون أنه يصير قادرا على ما لم يكن قادرا عليه من قبل. وآخرون من أهل البدع يقولون: أن الفعل صار ممكنا له بعد أن كان ممتنعا، فإن كان مقصودهم

---

(١٩) هذا كلام ابن القيم في شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ٢٧٧).

بكونه كان ممتنعا أي لعدم قدرته عليه فسيكون كلامهم أفحش، وإن قالوا بل كان قادرا ولكن الكلام ممتنع عليه لموانع أخرى فهو أهون من سابقه.

دَعْوَى الْجَهْمِيَّةِ امْتِنَاعَ حَوَادِثَ لَا أَوَّلَ لَهَا

وَأَصْلُ هَذَا الْكَلَامِ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ، فَإِنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ دَوَامَ الْحَوَادِثِ مُمْتَنِعٌ، وَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلْحَوَادِثِ مَبْدَأٌ، لِامْتِنَاعِ حَوَادِثَ لَا أَوَّلَ لَهَا، فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الْبَارِي عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَزَلْ فَاعِلًا مُتَكَلِّمًا بِمَشِيئَتِهِ، بَلْ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى ذَلِكَ، لِأَنَّ الْقُدْرَةَ عَلَى الْمُمْتَنِعِ مُمْتَنِعَةٌ! وَهَذَا فَاسِدٌ، فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى امْتِنَاعِ حُدُوثِ الْعَالَمِ وَهُوَ حَادِثٌ، وَالْحَادِثُ إِذَا حَدَثَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُحْدَثًا فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُمْكِنًا، وَالْإِمْكَانُ لَيْسَ لَهُ وَقْتٌ مَحْدُودٌ.

هم بقولهم هذا يزعمون أنهم يريدون الخروج من إشكالات يظنون أنها لازمة لقولنا: أنه لم يزل يفعل، **فهم يقولون**: أنه يلزم من ذلك قدم العالم. وسبب ضلالهم هنا: أنهم لم يستطيعوا التفريق بين وجود مخلوق معين – فلا يجوز أن يكون مع الله دائما – وبين مخلوقات يوجدها الله ويفنيها كما يريد ومتى شاء.

فالإشكال عندهم أنهم قالوا: لو قلنا أن الله لم يزل فاعلا فذلك يعني أن المخلوقات لم تزل مع الله.

فنقول لهم: هل تقصدون لم يزل مخلوق معين مع الله؟ نحن لا نقول هذا، وإن كان المقصود أنه لم يزل يفعل ما يشاء فهذا لا يمكن إلا أن يكون الله موصوفا به لأنه الحق ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] [البروج: ١٦] وهذا من أقوى الأدلة على أن الفعل ممكن له سبحانه وتعالى أزلا وأبدا، لأنه علق الفعل بالإرادة وإرادته تعالى قديمة قائمة بذاته، فما أراده فعله لأن قدرته قائمة، فيكون المفعول ممكنا.

وَمَا مِنْ وَقْتٍ يُقَدَّرُ إِلَّا وَالْإِمْكَانُ ثَابِتٌ فِيهِ، وَلَيْسَ لِإِمْكَانِ الْفِعْلِ وَجَوَازِهِ وَصِحَّتِهِ مَبْدَأٌ يَنْتَهِي إِلَيْهِ، فَيَجِبُ أَنَّهُ لَمْ يَزَلِ الْفِعْلُ مُمْكِنًا جَائِزًا صَحِيحًا، فَيَلْزَمُ أَنَّهُ لَمْ يَزَلِ الرَّبُّ قَادِرًا عَلَيْهِ، فَيَلْزَمُ جَوَازُ حَوَادِثَ لَا نِهَايَةَ لِأَوَّلِهَا.

اضطر بعض المؤلفين من أهل السنة للدخول في هذا الكلام اضطرارا حتى لا يقال عن أهل السنة أنهم إنما ردوا هذا الكلام لجهلهم به، وأن من جهل شيئا عاداه، فقال بعض أهل السنة: نخوض في هذا مع اعتمادنا على أصول صحيحة، فنرد عليهم باطلهم من خلال كلامهم وعلومهم الباطلة، ولهذا انقسم المؤلفون في علم العقيدة من أهل السنة إلى قسمين:

قسم يسمون: الأثرية لا يدخل في هذا الباب أبدا فلا يمكن أن تجد من هذا الكلام في مثل كتاب التوحيد لابن خزيمة أو التوحيد من صحيح

البخاري ونحوهما، بل يسردون العقيدة من خلال النصوص من الآيات والأحاديث ولا يدخلون في شيء من الكلام.

والقسم الآخر: يسمون متكلمة أهل السنة، وهم لاشك قد أفادوا المسلمين أكثر من غيرهم، لأنك حين تسرد الآيات والأحاديث فإن أهل البدع يوردون الشبهات فقد تعجز عن جوابهم إذا لم تكن لك معرفة بوجوه بطلان كلامهم من خلال علومهم الكلامية، وحينها يتعالى عليك المبتدع ويشمخ.

ولذلك فقد ظهر في تاريخنا شخصيات علمية عرفت علم الكلام وما فيه من تناقضات، من هذه الشخصيات عثمان بن سعيد الدارمي، فإنه من أوائل من رد على أهل الكلام ردا سلفيا وفي نفس الوقت مع فهم لما يقوله الخصم وبيان وجه بطلانه، ومشى على ذلك مجموعة كان من أشهرهم: شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم(١).

نعم يوجد أناس ينتقدون هذه الطريقة كالذهبي فقد انتقد شيخ الإسلام ابن تيمية(٢)، ولهذا تجده لما اختصر منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام

---

(١) انظر: منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين تأليف د مصطفى مُحَمَّد حلمي.

(٢) قال الذهبي عنه: " ولقد نصر السنة المحضة والطريقة السلفية واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون وهابوا وجسر هو عليها حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشأم

تجاوز المواضع الكلامية إلى الحديث عن رد شبهات الرافضي حول النصوص التي يؤولها على غير وجهها.

ولا شك أن هذه الطريقة أقوى؛ لأنك من خلالها تعرف كلام خصمك على وجهه، كما تعرف بطلانه على سبيل التفصيل فتبطل كلام الأشعري بكلام المعتزلي، وكلام المعتزلي بكلام الأشعري، وتبطل كلامهم جميعا بكلام الفلاسفة والعكس، فتكسر مذاهبهم بعضها ببعض(٣):

حجج تهافت كالزجاج تخالها ... حقا وكل كاسـر مكسـور

قياما لا مزيد عليه وبدعوه وناظروه وكابروه وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي بل يقول الحق المر الذي أداه إليه اجتهاده وحدة ذهنه وسعة دائرته في السنن والأقوال " العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص: ١٣٣).

(٣) أنشده الخطابي عن بعض الشعراء انظر: الغنية عن الكلام وأهله (ص: ٤١). ولابن الرومي في ديوانه شرح أحمد بسج (٢/١٦٦) أبيات مشابهة يقول فيها:

لذوي الجدالِ إذا غدوا لجدالهم ... حججٌ تَضِـلَ عن الهدى وتجورُ

وهن كآنية الزجاج تَصادمتْ ... فهوتْ وكلٌّ كاسِـرٌ مكسـور

فالقاتل المقتول ثَمَّ لضعفه ... ولِوَهْيِه والآسِـرُ المأسـور

لأنهم مختلفون فيما بينهم، وكل واحد منهم يرد على الآخر، فمن أمثلة ذلك في مسألة الرؤية:

يقول المعتزلة الله لا يرى لأنه لو أثبتنا الرؤية؛ فلا بد أن تقع العين على الرب في جهة، ولا يمكن أن يكون الرب في جهة، والأشعرية يقولون: لا بل الله يرى؛ لأنه قد ثبتت النصوص بالرؤية، ولكن يرى لا في جهة(٤)، لأنهم يوافقونهم في نفي الجهة، فقال لهم المعتزلة هذا غير معقول، كيف يرى لا في جهة؟! فقالوا لهم هذا مثلما اتفقنا وإياكم على أنه موجود ولكن ليس في جهة. فكانت حجة الأشعري هنا أظهر من المعتزلي(٥)، لكن السني يقول: كلاكما مبطل﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩]، فنحن أهل السنة نثبت أن الله فوق خلقه وأنه يرى في جهة العلو.

---

(٤) قال شيخ الإسلام : "وجمهور الناس من مثبتة الرؤية ونفاتها يقولون: إن قول هؤلاء معلوم الفساد بضرورة العقل" منهاج السنة النبوية (٢/ ٣٢٩).

(٥) كما قال في الشرح: "لكن قول من أثبت موجودا يرى لا في جهة، أقرب إلى العقل من قول من أثبت موجودا قائما بنفسه لا يرى ولا في جهة" شرح الطحاوية – ط دار السلام (ص: ١٩٥).